العرب
السبت 2019/11/23
السنة 42 العدد 11537

المرأة الشرقية جميلة في سائر الحالات

مانيا سويد تحلل المفارقات الأنثوية بين شكسبير وشوقي

قد تختلف صورة المرأة العربية والشرقية عموما عن المرأة في الغرب، اختلافا على غير ما كرسته النظرة النمطية للمرأة الشرقية كخاضعة والغربية كفاعلة، بل هو اختلاف فكري بالأساس، اختلاف متولد من بيئة ونظرة إلى العالم، فيما من ناحية أخرى المرأة هي نفسها في الشرق أو الغرب. ولاستجلاء صورة المرأة واختلافاتها اختارت الناقدة السورية مانيا سويد أن تقارن بين صورة المرأة عند شكسبير وصورتها عند أحمد شوقي.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

تقدم الناقدة مانيا سويد في كتابها "شكسبير وشوقي مفارقات أنثوية. قراءة في مسرحيتي ترويض الشرسة والبخيلة" قراءة حديثة للحياة الأدبية لشكسبير وشوقي، حيث راجعت المناخين الأدبي والمهني لكليهما، وذلك سعيا إلى تفسير عصري لما تواترت على ترديده المراجع التاريخية والأدبية لتفاصيل العلاقات الإنسانية التي مرت بحياة الشاعرين، وفي الوقت نفسه ناقشت جانباً من المسلمات التي تناقلتها الأجيال من قبل كما هي دون تمحيص ومناقشة.

> صورة المرأة عند شكسبير كانت مختصرة في نقطتين متنافرتين متضادتين حيث يقدمها شخصا يجمع النقيض بنقيضه

وتقول سويد إن كتابها يبحث في واحدة من "الشطحات" المسرحية التي قدمها كل من الشاعرين، والشطط الخيالي الذي صاحبهما في تجربتين مسرحيتين فريدتين قياساً على ما اعتاده الناس في أعمالهما، حيث خرجا عن المألوف في تقديم صورة المرأة المعتادة التي تعودنا عليها في أعمالهما والمألوف في المرأة بوجه عام.

محاولة ترويض

ترى سويد أن شكسبير قدم المرأة شرسة مستبدة متسلطة متمردة في مسرحية ترويض الشرسة، وقدمها شوقي بخيلة ضنينة ممسكة في مسرحية البخيلة، هذا بالإضافة إلى نماذج أخرى من المفارقات الأنثوية التي ظهرت في بعض أعمالهما الشعرية والمسرحية.

وتضيف سويد "على سبيل المثال عرض أحد الشاعرين مشهداً تنقلب فيه رقة الطبع إلى استوحاش، هذا هو حال شكسبير مع المرأة في مسرحية ترويض الشرسة، وعرض الآخر مشهداً تنقلب فيه الرفاهية والحياة الناعمة التي تميل إليها المرأة بوجه عام إلى تقشف، هذا هو حال شوقي مع المرأة في مسرحية البخيلة. وبين كاترينا التي ابتدعها شكسبير ونظيفة التي ابتدعها شوقي مساحة زمنية اقتربت من الثلاثة قرون، ومع ذلك فهما متشابهتان، كأن إحداهما تقول للأخرى لا تعيريني بما أصابني فأنت أكثر مني ابتلاء، وكلاهما تمثلان صورة المرأة ضحية خيال الشعراء حين يخرجون عن المألوف قصداً أو من دون قصد".

وتلفت سويد إلى أن القراءة التي تتوافق مع هدفها من تأليف هذا الكتاب لن تصل إلى القارئ بالصورة المقصودة ما لم يمهد لها بمقتطفات من تاريخ المسرح بوجه عام والكوميديا بوجه خاص، فوضعت مبحثاً تمهيدياً عرضت فيه لبعض ملامح المسرح العامة في اليونان القديم، ثم في عصر النهضة في بريطانيا وفي فرنسا، ثم عرضت موجزا للبدايات الأولى للمسرح العربي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، وجميعها مجرد نماذج لتقديم أمثلة على تاريخ المسرح.

وشكسبير في رأي المؤلفة لم يقدم في كاترينا شخصية المرأة المعتدلة، البين بين، القوية لكن لا تنسى أنوثتها، المطيعة لكن تعتز بأن لها رأيا.. كان الهاجس الأول الذي شغل شكسبير بالنسبة إلى كاترينا هو ترويضها حتى وإن انتهى بها المطاف إلى أن تصبح ضعيفة خانعة لا تملك رأيا ولا تفعل سوى ما يراه الرجل.

وتوضح سويد أن "الصورة كانت بالنسبة إليه مختصرة في نقطتين متنافرتين متضادتين. نقطة تقف عندها كاترينا، أو وضعها هو عندها، ونقطة أخرى يريد أن ينقلها إليها، ولا وسط بين النقطتين، فمن النقيض إلى نقيضه، ومن الضد إلى ضده. كان التجويع هو المخرج الذي اختاره لإنجاح خطة تحويل كاترينا من حال إلى حال، كأن فلسفة شكسبير اتجهت إلى الفطرة لفك شفرة كاترينا المستوحشة، فلم يجد إلا الأسلوب نفسه الذي يتم به استئناس الحيوان وتحويله من بري إلى أليف.

لذلك لا نعجب من أن بعض التجارب السينمائية التي اقتبست رواية ترويض المستوحشة قد تعمدت أن تكون مهنة بتروشيو بيطرياً، ولا نعلم إن كان هذا مغالاة في الكوميديا أم تعمدا للإساءة إلى المرأة! أم أن المخرجين أساءوا فهم نوايا شكسبير".

تقول الناقدة "لنا أن نعتبر الشاعر الكبير بداية كان قد وضع كاترينا في غير مكانها الطبيعي، فجعلها شرسة مستوحشة عصية على الإذعان من أجل أن يبدع أحداثاً تثير الضحك، أو لينسج مشروعاً مسرحياً كوميدياً جريئاً، ثم رأى في النهاية إعادتها إلى وضعها الفطري لتصبح على طبيعتها الأنثوية الرقيقة التي خلقت بها بغض النظر عن الوسيلة لتي استعملها في ذلك، ولو لم تكن مقنعة للقارئ، أو كانت مباغتة له، أو أغضبت النساء بصفة خاصة، وبغض النظر أيضاً عن فهمه ورؤيته لمفردات وتفاصيل أنوثة المرأة. لكنه في الحقيقة تجاوز الوضع الفطري الطبيعي ليصل بكاترينا إلى درجة كاريكاتيرية مصطنعة ومبالغ فيها لا تعكس سوى نتيجة واحدة هي خضوع المرأة لسيطرة الرجل.. وإذا كان قد أراد أن تكون الخاتمة سعيدة وسلمية؛ فإنه لم يجد سبيلاً إلى ذلك سوى بتنازل صاغر اضطرت إليه المرأة ليحسم المعركة لصالح الرجل".

شخصية محببة

تشير سويد إلى أنه "إذا كان شكسبير قد بالغ في وحشية كاترينا ثم بالغ في خضوعها بعد التحول، بحيث أقنع القارئ في البداية بأنه أمام امرأة منفرة بكل ما تحمله الكلمة من معاني، ثم أقنعه بعد تحولها بأنه أمام امرأة مسلوبة الإرادة لا رأي لها، فإن شوقي لم يستطع السيطرة على نظيفته، لقد أفلتت منه، حاول أن يجعل من بخلها عيباً يثير الضحك والفكاهة، لكنه في الحقيقة قدم نموذجاً محبباً من النساء، لم يستطع أن يجعل القارئ يشمئز من بخلها، أو ينفر من تصرفاتها، بل ما حدث كان بعكس التوقعات، أحب القارئ نظيفة كما هي، وتألم لفراقها المفاجئ، وشعر بأنه فقد شخصاً عزيزاً محبباً".

وتعلل ذلك بأن أحمد شوقي، الشاعر مرهف الحس رقيق الوجدان، لم يتقن لعبة المسرح مثلما أتقنها شكسبير، لكنه تفوق عليه في جعل شخصيته الرئيسة محببة للجميع، رجالا ونساء، حتى وإن اتصفت بعيب، فلم يطغ عيبها على محاسنها، لم يتجه منذ البداية إلى فكرة الانقسام بين معجبين وغاضبين، بذكاء الشاعر العارف بخبايا النفس البشرية أعلن عن فلسفته: الكثير من المزايا يخفي القليل من العيوب، وهي فلسفة مناقضة لفلسفة الشاعر الإنكليزي الذي رأى أن عيباً واحداً يدحض مزايا كثيرة.

وترى سويد في كتابها أن أمير الشعراء لم يستطع أن يرى المرأة الشرقية إلا بهذه الصورة العطوفة، وإن كانت بخيلة، أراد أن يجسد للمسرح امرأة تحمل المتنافرين معاً، البخل والرفق.. لم يسر على النهج الشكسبيري في السير بالشخصية من النقيض إلى نقيضه، بل جعلها كلا لا يتجزأ، كل يسير في منظومة واحدة.. لم يبدأ بالشخصية عند نقطة ثم يسعى إلى نقلها إلى نقطة أخرى مقابلة دونما اعتبار للوسطية، بل بدأ بها بما تحمله من عيب، وسار معها إلى أن رحلت عن الدنيا كما هي دونما تغيير. وقد عكست المسرحية فلسفة أحمد شوقي تجاه المرأة بوجه عام، فهي جميلة في جميع أحوالها؛ مهما شابها من شوائب أو أصابها من عيوب أو اقترفته من رذائل أو ألمّ بها عارض.

فحنو الأم ورأفتها يتدفقان من داخلها ولو لم تكن أماً في واقعها. هكذا الأنثى، أم بالفطرة، ولو لم تحمل جنيناً. لا ينضب عطفها، ولا تنقطع ألفتها إلا إذا أصابها خلل نفسي أو لازمتها آفة عقلية. أراد شوقي من بخل نظيفة أن يدخل مسحة فكاهية في قلوب من قرأوا المسرحية أو شاهدوها، لكنه أراد في الوقت نفسه أن يجعل الجميع، من داخل الرواية أو من خارجها، يحبون تلك السيدة الشرقية، فكان له ما سعى إليه، وخرجت الشخصية من بين يديه كما أرادها أن تكون، لا شذوذ فيها ولا مبالغة.

المرأة أكثر من مجرد صورة (لوحة للفنانة علا الأيوبي)

رحلة في ذاكرة شارع الرشيد

حميد سعيد
كاتب عراقي

شارع الرشيد، أشهر شوارع بغداد، بل كان لعدد من العقود، يكاد يكون هو بغداد، وينسب إلى أحد الدبلوماسيين البريطانيين ممن عملوا وأقاموا في بغداد قوله: إن شارع الرشيد يعادل مدينة كاملة متكاملة، بل هو بغداد، وبغداد هي شارع الرشيد، وأستطيع القول، إنني من أوائل الذين قالوا بهذا الرأي، حين أفردت فصلاً في كتابي "المكان في تضاريس الذاكرة" لقسم من شارع الرشيد، وهو القسم الممتد من ساحة الرصافي إلى الميدان والباب المعظم، وكان الفصل بعنوان" بغداد في كيلومتر واحد" أي أنني رأيت بغداد، في هذا القسم من شارع الرشيد، حيث عشت في رحابه طيلة أعوام دراستي الجامعية.

وإنها لمصادفة طيبة، أن يقترن صدور كتاب "رحلة في ذاكرة شارع الرشيد" للإعلامي والمترجم العراقي البغدادي سعدون الجنابي، بالانتفاضة المجيدة التي تشهدها بغداد والمدن العراقية، وشارع الرشيد أحد ميادينها، وعلى أديمه سال دم الأبرار من الفتيان.

لقد كان سعدون الجنابي أميناً في مؤلفه هذا، على تاريخ شارع الرشيد، وهو ابن محلة المربعة، التي كانت وما زالت من أشهر محلات بغداد ومن أكثرها حضوراً ليس في ذاكرة البغداديين فحسب، بل في ذاكرة كل من عرف بغداد.

لقد كرس فصلاً مهماً في كتابه لما شهده شارع الرشيد من نشاطات سياسية، إذ كانت البداية في العام 1916 إبان زمن ولاية الوالي العثماني خليل باشا، لذا أطلق عليه آيامذاك اسم "خليل باشا جادة سي" ثم أطلق عليه اسم الشارع الجديد، وبعد ذلك وفي الحكم الوطني أصبح اسمه شارع الرشيد تيمناً بالخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد شكل الفضاء الحيوي لذاكرة العراقيين، وبخاصة في ما يتعلق بالأحداث السياسية، ففي ثورة العشرين الوطنية، كان جامع الحيدرخانة، صوت الثورة في بغداد، وفيه عرف خطيب الثورة وشاعرها محمد مهدي البصير، وتواصلت فيه التجمعات المؤيدة للثورة والمنددة بالاحتلال البريطاني.

يقول المؤلف: شهد شارع الرشيد تظاهرات وانتفاضات شعبية، منها التنديد بوعد بلفور وانتفاضة كانون في العام 1948 وتقسيم فلسطين ومعاهدة بورتسموث والتنديد بالعدوان الثلاثي على مصر، ونشاطات تعاطف العراقيين مع أحداث فلسطين وبخاصة بعد مشاركة الجيش العراقي في القتال ضد الاحتلال الإسرائيلي، واستمرت التظاهرات الجماهيرية فيه على امتداد العهدين الملكي والجمهوري في المناسبات والأحداث الوطنية والقومية، سواء كانت مؤيدة أم معارضة.

وحين يتناول الكاتب رمزية المكان، يشير إلى ما تميّز به شارع الرشيد على صعيد تعدد المدارس المعمارية، حيث احتضن عدداً من الجوامع والمراقد ذات الطابع الديني وبعض الكنائس، وهي موزعة على امتداد الكيلومترات الأربعة، لطول الشارع.

وحين يتحدث أي كاتب عن الشواخص المكانية في شارع الرشيد لا بد أن يذكر المقاهي وبخاصة تلك التي كان يرتادها الكتاب والشعراء والصحافيون والفنانون وبعض المحال التي اقترن حضورها وتاريخها ليس بشارع الرشيد فحسب، بل كانت، وبعضها ما زالت تعد من علامات بغداد المميزة، ومن هذه المقاهي مقهى الزهاوي ومقهى حسن عجمي ومقهى الشابندر، وهذه المقاهي توالت أجيال من أدباء العراق وصحافييه وأكاديمييه وفنانيه، على ارتيادها، وما زالوا، وكذلك مقهى البرلمان والمقهى البرازيلي اللذان انتهى وجودهما، وتحولا إلى محال تجارية في العقد السابع من القرن الماضي، لكنهما ما زالا حاضرين في ذاكرة البغداديين.

إن سعدون الجنابي ابن بغداد ومحلة المربعة وشارع الرشيد، حيث عاش فيها أعوام طفولته وصباه وبعض أعوام شبابه، لا تتوقف ملاحظاته عند المكان مجرداً من بعده الاجتماعي، وهو يرى إن البغداديين هم فخر هذا الشارع، لأنهم تميزوا بانفتاحهم الاجتماعي والثقافي، وتعايشهم على أساس المواطنة وليس على أساس الدين أو الطائفة، وكانت دور السينما تعرض أحدث الأفلام، كما أنهم عرفوا أحدث صيحات الموضة في الملابس الرجالية والنسائية والعطور المتميزة.

وظهر في بغداد أهم المقرئين، ممن توارثوا القراءة البغدادية وعرفوا بقوة الأداء وجمال الصوت واعتماد المقامات اللحنية في انتقالاتهم وهم يقرأون آيات الذكر الحكيم.

ويقول المؤلف: عرفت بعض إخواني من المسيحيين والصابئة يستمعون بشغف إلى هؤلاء المجيدين مثل الحافظ مهدي والحافظ خليل إسماعيل وعبدالستار الطيار والحاج محمود عبد الوهاب وغيرهم ممن وضعوا اللبنات الأولى في أصول التلاوة وقراءة المناقب الدينية.

ورغم أن المؤلفات الكثيرة والمقالات التي لا عد لها تناولت بغداد الحديثة وتوقفت طويلاً عند شارع الرشيد، إلا أن كتاب"رحلة في ذاكرة شارع الرشيد" كان إضافة إلى كل ما سبقه من تأليف وكتابات عن بغداد الحديثة وعن شارع الرشيد، لأن المؤلف ولد وعاش في رحابهما.

> مقاهي شارع الرشيد توالت على ارتيادها أجيال من أدباء العراق وصحافييه وأكاديمييه وفنانيه ولكنها اليوم آيلة إلى السقوط

وقبل أن أنهي مقالتي أود أن أشير إلى أن شارع الرشيد تعرض منذ سنة 2003 إلى نكبة موجعة على أيدي شعوبيي نظام التخريب والدمار، بدافع الحقد على بغداد وتاريخها، وقد استمعنا إلى من يدعو من رموز هذا النظام وبوقاحة إلى تغيير اسم شارع الرشيد، فهو لم يهمل فقط، بل تعرض إلى حملة تخريب منظمة، لكن إرادة العراقيين وعروبتهم وصدق وطنيتهم التي ظهرت بكل عنفوانها في انتفاضة تشرين، ستعيد إلى شارع الرشيد ألقه كما أعادت ألق بغداد والعراق الجميل.

شارع المثقفين العريق يحتاج إلى الإنقاذ